البعد الغائب في الكتابة السيميائية العربية
مجلة عالم الفكر نموذجًا

الدكتور: محمد صـــاري
قسم اللغة العربيـــة وآدابهـــــا
جامعة عنابـــــة

1 – مقدمـة:

إن الحاجة إلى بناء علم أو نظرية للأدب, لاسيما بعد الأزمة الخانقة التي شاهدتها التيارات النقدية في أواسط الستينيات, دعت منظري الأدب والنقاد إلى إجراء مراجعات للأدوات النقدية القديمة التي تميزت عمومًا بالذاتية وأحيانًا بالذوقية السائبة. فالإحساس بالحاجة إلى الموضوعية في التحليل, والعلمية في الطرح, والرغبة في تجديد أنماط التعامل مع النص الأدبي خاصة, وإعطاء نفس جديد للنقد في ضوء النظريات اللسانية والفلسفية, كل ذلك أدى إلى ثورة في المناهج وانفتاح الأدب على العلوم. فلم يعد تداخل الاختصاصات والتعاون المكثف الذي يجري في المجالات المعرفية المختلفة, بما في ذلك النقد الأدبي واللسانيات, موضوعًا لنقد واسع النطاق, بل أصبح سمة من سمات البحث العلمي في القرن العشرين.[1]

لقد بدأت أكثر الفترات ازدهارًا في تاريخ الدراسات النقدية حين تسلم البنيويون زمام القيادة, حيث أظهروا اختلافًا واضحًا عن عصر ما قبل البنيوية في التنظيم المنهجي للمعرفة, وفي تفسير للحقائق المعروفة على نحو جديد, وفي توسيع مجال اهتماماتها توسيعًا ملحوظًا, وفي انغماس دارسيها في تعاون يتسم بتداخل التخصصات, وفي استعارة إجراءات منهجية

[1] – ميلكا إفيتش, اتجاهات البحث اللساني, ترجمة سعد مصلوح ووفاء كامل فايد, ط2, المجلس الأعلى للثقافة, الكويت2000, ص99 – 110.

من العلوم الطبيعية واستثمارها في تحليل ظواهر اللغة والأدب.1 ورغم الانتقادات الإيجابية والسلبية التي وُجهت إليهم فقد ظل الكثير من أفكار البنيويين من المسلمات, حيث تَقَبَلَتْها أجيال متعاقبة من اللسانيين والنقاد الذين أسسوا عليها مناهج للتحليل ونظريات للأدب.2

ولعل أبرز الأدوات التحليلية التي تعاظم الاهتمام بنقلها, والتعريف بأصولها ومفاهيمها في الكتابة اللسانية والنقدية العربية "السيميائيات" أو "السيميائية", إذ تحتل في المشهد الفكري المعاصر مكانة مميزة,3 على الرغم من أن صياغة حدودها النظرية, وتحديد أساليبها وإجراءاتها لم تحسم بعد. بشر اللسانيون والمناطقة بضرورة وجودها, وعلق عليها نقاد الأدب ودارسوه آمالاً عريضة في التعامل مع النص الأدبي والكشف عن المعنى وأشكال وجوده وانزلاقاته. فهل يمكن اعتبار السيميائية نسقًا متكامل الأطراف؟ هل هي موضة أم ضرورة؟ كيف تم تلقيها من قبل القارئ العربي؟ بل كيف تتجلى في الكتابة اللسانية والنقدية العربية؟ على شكل فلسفة أم علم أم نظرية أم منهج أم تقنية من تقنيات التحليل النفسي... ؟ ما مدى استثمار الكتابة النقدية العربية لهذا الوافد الجديد في تجديد القراءة؟ هل بلغت التجربة العربية النضج الذي حققته الكتابة الغربية إجراءً وتنظيرًا؟ وباختصار ما البعد الغائب في هذه التجربة؟

---

[1] - المرجع السابق, ص103.

[2] - كالتفكيكية والسيميائية اللتين اعتبرتا, في منظور بعضهم, من المناهج المعارضة للبنيوية الأولى. والحقيقة أنهما امتداد وتطوير طبيعي لأفكارها, وتنقيح لكثير من مفاهيمها التي لم تكن قد تبلورت بعد. انظر محمد عناني, المصطلحات الأدبية الحديثة, ط3, الشركة المصرية العالمية للنشر – لونجمان, القاهرة2003, ص101.

[3] - سعيد بنكراد, السيميائيات: مفاهيمها وتطبيقاتها, منشورات الزمن, الرباط, ص16.

2- المؤلف والنص والقارئ:

إن التعامل مع النص الأدبي يعد من أعسر ما يُقدم عليه الدارس من مواضيع. فهو نص خاص ومتفرد, يتميز بالكثافة ووفرة الدلالة, تنحرف فيه اللغة عن المألوف.1 وإن التشويه الجمالي المقصود لمكوناته اللغوية عن المعيار العادي,2 يجعل تلقيه عملية معقدة, ومن هنا توالت النظريات والمناهج عليه ينسخ بعضها بعضًا. وإن التجاوز الحاصل في تاريخ النقد من نظرية لأخرى, ومن منهج إلى آخر لا يشير في الواقع إلى وجود حركة تصاعدية في النمو والتطور. إنه مجرد استبدال لممارسة بممارسة, أو لنظرية بنظرية أخرى. فحركة الأنساق المتنافسة، وإن أدت إلى تزحزح للأفكار واهتزاز في الوعي الجمعي, تبدو عمليًا مثل نظام الموضة, فهي ذات طبيعة دائرية وليس خطية ارتقائية. ولعل انتقال النقد ونقاد النقد من الحديث عن المؤلف, إلى الاهتمام بالنص, إلى التركيز على القارئ, ثم إلى الدعوة للاهتمام بهذه العناصر مجتمعة, يشير بوضوح إلى هذه الحركة الدائرية. فالمؤلف والنص والقارئ أقطاب مركزية في الخطاب النقدي, تأسست عليها مناهج للتحليل ونظريات للأدب. يمثل كل ركن منها مرحلة أو سلطة معينة في تاريخ درس الأدب ونقده. ولنبدأ بسلطة المؤلف التي تعكس الثورة الأولى للمناهج والنظريات, وشعارها "الأدب مصنوع يدل على الصانع

---

[1] – على الرغم من أن قضية التمييز بين اللغة الأدبية وغير الأدبية شكليًا ووظيفيًا تعد من أكثر الآراء الخصبة التي ساعدت , نظريًا, على تشكيل الاتجاهات الحديثة في الأسلوبية, فإن بعضهم وقف ضد هذه الفكرة مبينًا أن ما يسمى الاستخدامات الأدبية للغة لها ما يقابلها في التخاطب اليومي, يظهر ذلك على سبيل المثال في الدعاية والإعلان وسرد النكت والمزاح...انظر, ن. ي. كولنج, الموسوعة اللغوية, المجلد الثاني, ترجمة, محي الدين حميدي وعبد الله الحميدان, النشر العلمي والمطابع, جامعة الملك سعود, السعودية 1421هـ, ص595.

[2] – ن.ي.كولنج, الموسوعة اللغوية, ص592.

مثلما تدل سائر المصنوعات على سائر الصانعين".1 فالعمل الأدبي, عند القائلين بهذا الاتجاه, مرآة تعكس شخصية الأديب, لا يُفهم أو يحلل إلا من خلال العوامل الذاتية أو الموضوعية التي ساهمت في تكوينه. بل إن كل نص أدبي لا يضع أيدينا على سمات مؤلفه هو نص زائف.2 ومما تتسم به هذه المقاربة التاريخية للأدب أنها تمنح الذات المبدعة في بعديها الفردي والاجتماعي مكانة كبيرة, حيث تسعى إلى إبراز أثر الوسط الاجتماعي في الإبداع الأدبي, وفهم العبقريات الفذة في صلتها بروائعها الأدبية. على أن الْتماس النقاد لمختلف الإرشادات عن الأديب, والتسلح بمعرفة دقيقة وموسعة للعصر الذي أسهم في تشكيل عبقريته, ليس القصد منه فهم الشاعر لنفسه كما يقول طه حسين, وإنما فهم الشاعر من حيث هو صورة من صور الجماعة التي يعيش فيها.3 هذه حلقة في تاريخ درس الأدب ونقده, قامت على الحفظ والرصد التاريخي المستند إلى حياة المبدع وأحداث عصره. ولعل أبرز الأسباب التي حملت المشتغلين بالأدب والنقد إلى الإقلاع عن هذا المنهج, تشابه الدراسات النقدية على مستوى النتائج والتأويلات, والنزعة التفسيرية للأدب لدى أنصاره. فقد ركزوا على شخصية الأديب, وغالوا في الربط بين بعض أعماله وجزئيات من حياته, وملابسات وضعه الاجتماعي. أما العمل الأدبي, وهو موضوع الأدب, فمعطى ثانوي بالنسبة إليهم.4 لهذا قام المنهج البنيوي على ضرورة إعادة الاعتبار أو السلطة للنص الأدبي, وذلك بتخليصه من الزوائد التي طغت عليه. وكانت عبارة "موت المؤلف أو اختفائه" هي شعار ثورة المناهج النقدية الجديدة. " فالنص الأدبي ليس أدبيًا بمعناه أو فحواه,

[1] - حسين الواد,مناهج الدراسات الأدبية, ط4, منشورات عيون, الدار البيضاء, 1988, ص32.

[2] - وليد قصاب, مقالات في الأدب والنقد, ط1, دار البشائر, دمشق, سوريا2006, ص 33.

[3] - حسين الواد, مناهج الدراسات الأدبية, ص42, 43.

[4] - محمد أديوان, النص والمنهج, ط1, دار الأمان, الرباط, ص 92, 120, 121.

وأنه ليس كذلك من حيث نشأته وما يتدخل فيها من مؤثرات, وإنما هو أدبي بحكم "صياغته" و"أسلوبه" و"طريقته" و"وظيفة اللغة فيه".1 وهكذا تمرد البنيويون2 على الدراسات الأدبية التقليدية, ووضعوا مشكلة المنهج نصب أعينهم, فلم يكن التفسير هدفهم, بل التوصل إلى فهم الطرائق الأدبية, ووسائل تحقيقها لغايتها.3 أي إرساء قواعد لعلم الأدب, لأن "النقد الأدبي يضع النص في سياق معين, أيًا كان هذا السياق, ويهبه معنى من المعاني, وقد يتضمن الحكم عليه, وربما يتضمن أحكام قيمية. وأما "علم الأدب" أو علم الشعر مجازًا فهو يدرس أحوال وشروط ذلك المعنى, والأبنية الشكلية التي تنظم النص من الداخل, وتتيح له أن يكتسب معاني كثيرة".4 وهكذا استفاد النقد البنيوي من اللسانيات من زاويتين: الأولى من حيث تطبيقاتها المباشرة على الأدب, مما أدى إلى ظهور الأسلوبية, والثانية هي التطلع إليها باعتبارها المثل الأعلى للعلم المضبوط, الذي يصف أبنية اللغة وتراكيبها دون الحكم عليها.5

ويبدو النص في سياق الطرح البنيوي كيانًا مستقلاً يتضمن طرائقه الخاصة, ونسيجًا من العلاقات الداخلية المتشابكة, فلا يوجد شيء خارجه (بمعنى رفض التاريخ الأدبي للنص, والمؤثرات غير اللغوية), ولا يُقدِّم أي معلومة ليست فيه, ولذا لا بد من دراسته دراسة علمية. هذا الهاجس العلمي لدى الجيل الأول من البنيويين أظهر التحليل البنيوي وكأنه

---

[1] - حسين الواد, مناهج الدراسات الأدبية, ص 66.

[2] - يعد رولان بارت ورومان جاكبسون وتزيفيتان تودوروف وجريماس وجيرارجينيت من أبرز أعلام النقد الفرنسي, الذين أوصلوا البنيوية إلى ذروتها, باعتبارها منهجًا للتحليل ونظرية للأدب. أما خارج مجال النقد الأدبي فأهم أعلام البنيوية هم كلود ليفي شتراوس, وميشيبل فوكو, وجاك لاكان. انظر, محمد عناني, المصطلحات الأدبية الحديثة, ص101.

[3] - المرجع السابق, ص 103 – 105.

[4] - المرجع السابق, ص 105.

[5] - المرجع السابق, ص 106.

الأسلوب الوحيد للاقتراب من النص, كما أظهر النص وكأنه مادة كيميائية يجب إخضاعها لنظام صارم عند الفحص. إن معاملة النص الأدبي كمادة تجريبية يمكن إخضاعها دائمًا لقوانين أو قواعد عامة تحكم النصوص اللغوية, هي عملية لا تؤدي فحسب إلى تجاهل الذات المتكلمة, والتضحية بمضمون الأثر, وإغفال هوية النص الأدبي وخصوصيته, بل إنها كذلك عملية تسمح بإمكانية أن يكون أي نص أدبي موضوعًا أو مادة تجريبية للنقد وإن كان ضئيل القيمة, مادام الهدف لم يعد هو النص في ذاته وإنما التناول أو التأطير المنهجي له.1 ثم إن النص الأدبي ليس شكلاً مجردًا يعكس ظاهرة منعزلة, ويخاطب قارئا لازمانيًا (مطلقًا), بل إنه كما تقول كريستيفا: إبداع يتعدى على النظام وفقًا لطاقة المتحدّث.2 فهو ذو طبيعة زمانية, ويخاطب قارئًا يحيا في إطار تاريخي قد يكون مغايرًا لتاريخية النص.3

هذه بعض الانتقادات التي أدت إلى إعلاء السلطة الثالثة في درس الأدب والنقد, ألا وهي سلطة القارئ الذي شكل محور الدراسة, وبؤرة اهتمام شتى الاتجاهات التفسيرية.4 حيث يرفض أنصار هذا التوجه أن يكون النص أحادي أو نهائي المعنى, بل إنه ينفتح على عدد غير متناه من القراءات, ويتحمل عددًا لا يُحصى من التأويلات بفضل ما في خصائصه الصياغية من كثافة خلاقة. فالقراءة هي الوجه الآخر من الكتابة. وإن الوجود الحقيقي للنص يكمن داخل وعي متلقيه. فالقارئ مبدع ثان, يشارك في إنتاجية النص الأدبي منذ اللحظة التي يصبح فيها مكتملاً ومعطى من الرموز والعلامات,5 وذلك من خلال الغوص عن الدلالات وتفاعلاتها واختلافاتها المتواصلة. قال بارت : "إن الأثر الأدبي يكون خالدًا

---

[1] – سعيد توفيق, في ماهية اللغة وفلسفة التأويل, ط1, المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع,بيروت2002, ص 120.

[2] – محمد عناني, المصطلحات الأدبية الحديثة, ص 175.

[3] – المرجع السابق, ص 142.

[4] – المرجع السابق, ص 130.

[5] – سعيد توفيق, في ماهية اللغة وفلسفة التأويل, ص162.

ليس لأنه يفرض معنى مفردًا على أناس مختلفين, ولكن لأنه يوحي بمعان متعددة".1 وقال أيضًا: " قد يستبد, في النصوص الجمع, معنى من المعاني بالقارئ, لكن عدد القراءات ليس محدودًا أبدًا, فإمكاناته هي إمكانات اللغة في التعبير لا حصر لها ولا حدّ".2 فالنص يتضمن, في منظور بارت, كوكبة من الدوال لا بناء من المدلولات.3

ويبالغ بعض الدارسين عندما يفهم أن الحداثة وما بعدها تعطي القارئ سلطة مطلقة, " تفتح النص عليه, وتقول له: افعل به ما تشاء, افهمه كما تشاء, أوّله كما يتراءى لك...أنت منتج لا مستهلك, قد ترى من الدلالات ما لم يره أحد, وقد يخطر لك ما لم يخطر في بال المؤلف...".4 فليس كل نص يتضمن مدلولات متعالية, وليست كل قراءة مؤهلة لأن تخلق المعنى, وليس كل تفسير يتصف بالشرعية والقبول.5 فالنص يتوجه إلى قارئ نموذجي تعوَّد على القراءة. قد لا يكون لديه إلمام بالنظريات النقدية, ولكن يُفترض أن لديه ما يقيه من التعسف في الاستنطاق والاعتباط في التأويل. وما يلاحظ على نظرية تعدد القراءة أنها تعين الناقد على التحرر, وتعين القارئ والكاتب أيضًا على إعادة طرح صورة الذات وصورة العالم من حولها. والسؤال الذي يُطرح هاهنا, ألا يؤدي تكرار تحليل النصوص نتيجة إنكار معانيها السابقة, أو نتيجة إثبات عدم إمكان فهمها, إلى تفسيرات ارتيابية متضاربة, أو إلى فوضى الدلالة ولا نهائيتها, أو إلى إحداث لون من الرتابة والملل في درس الأدب؟ ألا تصبح التفسيرات النسبية المؤقتة (الظرفية) نهائية ومطلقة في إطارها التاريخي, أي من وجهة نظر العصر الذي لا يسمح بنقضها؟6 ومتى يكتمل فهم النص؟ أو متى يكتمل معناه؟

---

1 – سمير حجازي, النقد الأدبي المعاصر, ط2, دار الكتاب الجامعي,الكويت1996, ص 105.

2 – حسين الواد, مناهج الدراسات الأدبية, ص 67.

3 – محمد عناني, المصطلحات الأدبية الحديثة, ص 175.

4 – وليد قصاب, مقالات في الأدب والنقد, ص 35.

5 – ن.ي.كولنج, الموسوعة اللغوية, المجلد الثاني, ص 600.

6 – محمد عناني, المصطلحات الأدبية الحديثة, ص 150.

هذه باختصار نبذة موجزة عن السلطات الثلاث التي دارت الدراسات الأدبية في فلكها تجاوزاً وإقصاءً, (سلطة الكاتب, وسلطة النص, وسلطة القارئ), حيث أدت إلى إنجازات ثورية في النظريات والمناهج التي تناوبت على دراسة الأدب (كالمنهج البلاغي والتاريخي والنفسي والاجتماعي والبنيوي وما تفرع عنه كالمنهج السيميائي, الذي يعد امتدادًا وتطويرًا طبيعيًا لأفكارها, وتنقيحا لمفاهيمها التي لم تكن قد تبلورت بعد. فما الجديد الذي أضافه هذا العلم أو المنهج الواعد الذي لم يوجد بعد (أي السيميائية), والتي ادعى مروجوها امتلاكها فصل الخطاب؟1

3 – واقع التجربة السيميائية العربية:

ليس من السهل إجراء دراسة تقويمية للكتابة السيميائية العربية التنظيرية والتطبيقية والمترجمة, فالموضوع واسع ومتشعب, ومحاولة عرض كل الأدبيات التي تناولت الجهاز المعرفي للسيميائيات قد يكون ضربًا من العنت,2 ولكن كما يقال: ما لا يدرك كله لا يترك جله. ولعل أبرز المعايير التي تساعد على تحديد مدى خصوبة المنجز السيميائي العربي, هو اختبار تمثل هذا الحقل العلمي لدى الممارسين, ومقارنة نتائجه على فعل القراءة وتوليد الأفكار, هل يمثل إضافة بالنسبة لنظريات الأدب ومناهج التحليل الأخرى؟ ولكي لا تكون عملية الرصد عملية ذاتية أو عشوائية فقد وقع اختياري على عينة من البحوث التي وردت

[1] – انظر الخلاصة التي انتهى إليها كل من: محمد أديوان في كتابه, النص والمنهج, ص124 – 125. وسعيد علوش في بحثه القيم, علاقة النظرية بالمنهج, أعمال الندوة الدولية حول قضايا المنهج في الدراسات اللغوية والأدبية, النشرالعلمي والمطابع, جامعة الملك سعود, الرياض, 2010, ص16.

[2] – محمد بادي, سيميائيات مدرسة باريس: المكاسب والمشاريع (مقاربة إبيستمولوجية), مجلة عالم الفكر,ص287.

في المجلد الخامس والثلاثين من مجلة عالم الفكر.1 وقد دفعني إلى هذا الاختيار أسباب عديدة أجملها في ما يلي: أولاً - طبيعة العدد المذكور والقيمة العلمية للمجلة, فقد خصصت "عالم الفكر" محور هذا العدد للسيميائيات.

ثانيًا - نوعية البحوث الواردة فيه, حيث اشتمل على نخبة حديثة ومتنوعة من المقالات المحكمة التي تم انتقاؤها بدقة.

ثالثًا - طبيعة أسماء الباحثين الذين شاركوا في إنجاز هذا العدد, فجلهم من الأسماء البارزة في الكتابة النقدية والسيميائية.

يتكون العدد من تسعة بحوث, جاءت مرتبة على النحو التالي: السيميائيات: النشأة والتطور- السيميائيات التأويلية وفلسفة الأسلوب - العلامة والرمز في الفلسفة المعاصرة (التأسيس والتجديد) - أوليات منطقية رياضية في النظرية السيميائية - يوري لوتمان ...مدرسة "تارتو – موسكو" وسيميائية الثقافة والنظم الدالة - في سيميائيات التلقي - سيميائية الأهواء - سيميائيات التواصل الفني - سيميائيات مدرسة باريس: المكاسب والمشاريع (مقاربة إبيستمولوجية). وما يلاحظ على هذا الكوكتال من الوصفات المنهجية المتفاوتة من حيث الكم والمتشابهة في بعض النقاط, والتي برز فيها المؤرخ وغاب عنها السيميائي, هو تمظهر بعضها بلباس السيميائيات كموضة وليس كقناعة علمية, وفوضى المصطلح, وكثرة المداخل والمرجعيات, وضبابية الحدود والتعريفات إن لم نقل غموضها والتباسها, و غياب التراكم المعرفي, وكثرة التكرار والاستنساخ, والانفصام أو البون الشاسع بين جدل الوعي التنظيري والواقع الإجرائي.

فأما بالنسبة لفوضى المصطلح فقد لوحظ إسهالاً مرضيًا في الكتابة السيميائية العربية, وذلك في مواجهة مصطلحين أجنبيين هما: السيميائية (semiotique) و السيميولوجيا (semiologie). حيث أحصى بعضهم ستة وثلاثين مقابلاً عربيًا نذكر منها على سبيل المثال: السيمائيات, السيمائية, السيميوتية, السيمياء, السيميوطيقا, علم السيمنتيك, علم

[1] – انظر عالم الفكر, المجلد35, المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب, الكويت, يناير– مارس2007.

الرموز, علم العلامات, العلاماتية...إلخ.1 وقد حاول بعض الباحثين العرب أن يفرضوا فروقًا بين المصطلحين, فأسندوا السيميولوجيا للعلم النظري, وجعلوا السيميائية تنصرف إلى تطبيقات هذا العلم, والواقع أنهما حدان لمفهوم واحد كما يقول محمد عناني. فالسيميولوجيا معطى ثقافي أوربي وهي أكثر شيوعاً في الكتابات الفرنسية, والسيميوطيقا معطى ثقافي أمريكي وهي السائدة الآن (وحدها تقريبًا) في كل ما يكتب بالإنجليزية.2 ولعل ورود هذين المفهومين بصيغة العطف في المعجم الموسوعي لتودوروف وديكرو (السيميائية أو السيميولوجيا هي علم العلامات) يؤكد هذا الترادف.3 ومن مظاهر فوضى المصطلح في البحوث المذكورة عدم الاستقرار على استعمال مصطلح واحد, ليس على مستوى كل البحوث فحسب, بل على مستوى البحث الواحد, حيث تنوع الاستعمال بين السيميائية والسيميولوجيا وعلم العلامات وعلم الرموز.4 إضافة إلى فوضى المصطلح هناك إشكالية أخرى تتمثل في كثافة التصنيفات المتفرعة عن السيميائية, وعدم رسم الحدود الفاصلة بينها, إذ يصعب على القارئ المتخصص وغير المتخصص أحيانًا التمييز بين الفروع المتداخلة كالسيميائيات العامة والخاصة, وسيميائيات العلامة والخطاب, والسيميائيات التطبيقية والأسلوبية والتداولية والثقافية والتأويلية, وسيميائيات التلقي والتواصل والدلالة والعمل والأهواء والفنون, والسيميائيات الحديثة والقديمة...

وأما بالنسبة لقضية الغموض فظاهرة شديدة الوضوح على مستوى أغلب الكتابات السيميائية. " فلقد يراودك الإحساس أثناء قراءة نخبة البحوث الواردة في العدد الخاص

---

[1] - يوسف وغليسي, إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد, ط1, الدار العربية للعلوم ناشرون, منشورات الاختلاف, الجزائر, ص233.

[2] - محمد عناني, المصطلحات الأدبية الحديثة, ص153.

[3] - يوسف وغليسي, إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد, ص227 - 228.

[4] - الزاوي بغورة, العلامة والرمز في الفلسفة المعاصرة (التأسيس والتجديد), مجلة عالم الفكر, المجلد 35, ص97 - 126.

بالمجلة المذكورة, لاسيما دراسة محمد مفتاح ذات النزعة الرياضية التعالمية1, أن الكاتب لا يكترث إطلاقًا بمدى فهم القارئ له. فهو يخاطب نفسه, وأحيانا يأتيك شعور بأن الكاتب لا يعرف ماذا يريد بالضبط. أذكر على سبيل المثال قول أحدهم: " إن البحوث المنجزة في السيميائيات السردية, وفي سيميائيات التلقي, وفي لسانيات الخطاب, وفي مختلف التداوليات النصية تتجه نحو نقطة مشتركة, ألا وهي مركزية تلقي مرسل إليه عالم وكفؤ للنص والجدلية الضرورية بين إنتاج الدلالة وتلقيها في مخرج المشروع المجتمعي لرواج الموضوع النصي"2 ماذا يريد الكاتب بالضبط؟ لا ندري! ويقول آخر مشيدًا بالسيميائية التأويلية: "...تطمح هذه الأسئلة إلى أن تسهم السيميائيات التأويلية في إخراج مقولة الأسلوب من دائرته البلاغية الخالصة والأدبية المحدودة إلى دوائره الإبيستمولوجية المعقدة التي تتطلع إلى الشروط العامة, حيث تندمج البنيات العامة القارة في السيرورات الفردية, وتصبح المقاربة السيميائية معنية بمتابعة انصهار العام في الخاص والجماعي في الفردي والمحلي في العالمي", ولو استبدلت العبارة فقلت: انصهار الخاص بالعام, والفردي بالجماعي, والعالمي بالمحلي لكنت مصيبًا لا مصيبة على السيميائية, ولما اعترض عليك أحد. وتبدو ظاهرة الغموض بوضوح على مستوى ترجمة التنظير الغربي للقارئ الشرقي, ذلك أن المترجمين, كما يقول سعيد علوش, "على التوالي (محمود صبحي, محمد العمري, سعيد الغانمي, ثائر ديب, عز العرب الحكيم بناني, عز الدين اسماعيل, عبود كاسوحة, مصطفى بيومي عبد السلام), يمكن

[1] – محمد مفتاح, أوليات منطقية رياضية في النظرية السيميائية, ص133 – 181.

[2] – المصطفى الشادلي, في سيميائيات التلقي, مجلة عالم الفكر, المجلد35, ص211.

اعتبارهم نموذجًا حيًا للترتيق السيميائي (bricolage), فهم لا يقومون بمجرد استبدال ممارسة من الممارسات, بل يقدمون شكل حياة أعمال نظرية غاية في التجريد".1
وأما الانفجار التنظيري وتعدد المداخل والمرجعيات, في مقابل سطحية التطبيق وضحالته, فآفة التأليف بشكل عام. وإذا كان التنظير في النقد الغربي فرض كفاية, إذا قام به البعض سقط عن الجميع, فإنه العكس في النقد العربي. فهو فرض عين ينبغي على كل ناقد تأديته, ولذا تضخم مجال النقد بعدد هائل من المصممين (المهندسين المعماريين), بل بعدد هائل من المؤرخين. فعندنا مؤرخو لسانيات, ومؤرخو سيميائيات, ومؤرخو تداوليات, ومؤرخو تفكيكيات... أما اللسانيون والسيميائيون والتداوليون والتفكيكيون فقلما تعثر عليهم في الكتابات اللسانية والنقدية العربية. وهذه الظاهرة شديدة الوضوح على مستوى كل البحوث التي اشتملت عليها المجلة, فلا تكاد تعثر على بحث إجرائي واحد يشفي الغليل, فكلها بحوث تبشيرية تُعرّف بالمبادئ والأعلام, وتغري القارئ وتمنيه بمستقبل زاهر لهذا العلم الذي يتلون مثل الحرباء, إذ يظهر في الكتابة السيميائية العربية بكيفية زئبقية من الصعب جدًا لم شتاته. فتارة يظهر بوصفه فلسفة, وتارة بوصفه فرعاً علميًا, وتارة بوصفه منهجاً, وتارة بوصفه نوعاً من التحليل المنطقي أو النفسي, وتارة بوصفه معارف وتقنيات... ومن ينظر في الحدود والتعريفات التي أُسندت إليها يدرك بوضوح الغموض واللبس الذين يكتنفان هذا الكائن غير الموجود بتعبير ميشال أريفي.2 ومن ذلك مثلاً قولهم: " فالسيميائيات طريقة جديدة في فهم الظواهر وتأويلها, وهي أيضاً طريقة جديدة في التعامل

[1] – سعيد علوش, علاقة النظرية بالمنهج, أعمال الندوة الدولية في قضايا المنهج في الدراسات اللغوية والأدبية, قسم اللغة العربية, جامعة الملك سعود, 2010, ص13.

[2] – ميشال أريفيه, البحث عن فرديناند دو سوسير, ترجمة محمد خير محمود البقاعي, ط1, دار الكتاب الجديد المتحدة, بيروت2009, ص131.

مع المعنى".1 السيميولوجيا هي علم سيأخذ على عاتقه دراسة "حياة العلامة داخل الحياة الاجتماعية, وسيكون هذا العلم جزءًا من علم النفس العام".2 " فالمنطق في معناه ليس سوى تسمية أخرى للسيميائيات".3 "إن السيميائية ليست علمًا للعلامات, إنها دراسة للتمفصلات الممكنة للمعنى".4 "نسمي السيميولوجيا مجموع المعارف والتقنيات التي تسمح بالتمييز بين ما هو علامة, وما يجعلها تتأسس كعلامة".5 " ليست السيميائيات علم العلامات وحياتها في مجتمع ما وحسب, وإنما هي علم لتطوير المجتمعات وإصلاحها وتحسين أدائها كذلك".6 إن هذه التعريفات وغيرها تشير إلى أن فضاء هذا العلم الشريف! يكاد يتاهى مع كل شيء, مع "علم العلوم, والإبيستمولوجيا, ونظرية الخطاب, وفلسفة المعنى, وسيرورة الدلالات المفتوحة, ودراسة الأنساق الدالة جميعًا, والمنطق الواصف, وجبر العلامات".7 وباختصار إنه المنقذ من الضلال ولكنه لمَّا يوجد بعد!

لقد صار لزامًا على أي باحث في تاريخ هذا الحقل المعرفي الجديد أن يستعيد شهادة ميلاد السيميولوجيا والسيميائية من إشارة سوسير الرائدة (1857 – 1913م), والفيلسوف الأمريكي شارلز سندرس بورس (1839 – 1914م) باعتبارهما المؤسسين

---

[1] – سعيد بنكراد, السيميائيات النشأة والموضوع, مجلة عالم الفكر, المجلد35, ص12.

[2] – المرجع السابق, ص16.

[3] – المرجع السابق, ص16.

[4] – المرجع السابق, ص34.

[5] – الزواوي بغورة, العلامة والرمز في الفلسفة المعاصرة, مجلة عالم الفكر, المجلد 35, ص105.

[6] – محمد مفتاح, أوليات منطقية رياضية في النظرية السيميائية, مجلة عالم الفكر, ص176.

[7] – أحمد يوسف, السيميائيات التأويلية وفلسفة الأسلوب, ص47.

الفعليين للسيميائيات الحديثة.1 فقد أطلق الأول على العلم الذي بشر به في بداية القرن العشرين السيميولوجيا, وفي المقابل أطلق الثاني على علمه الجديد السيميائيات.2 ورغم مرور قرن من الزمن, بل ورغم تعاقب أجيال من كبار نقاد الأدب الغربي ودارسيه على هذا العلم الواعد, والذين ساهموا بشكل أو بآخر في في عملية التأسيس والتطوير أمثال (جريماص وكريستيفا ودريدا وفوكو وبارت ولاكان وليفي شتراوس...) فإن النظرية السيميائية لم تنضج بعد, وصياغة مفاهيمها ومصطلحاتها, وضبط موضوعاتها لم تحسم إلى الآن, ليس في البلاد العربية فحسب بل في مهد النظرية نفسها, فهي لاتزال مثار جدل ونقاش بين النقاد الغربيين أنفسهم.

ومن ينظر في الكتابة السيميائية العربية (النظرية) يلاحظ تكرارًا واجترارًا لموضوع النشأة والتطور والميادين والمبادئ والأعلام.3 وجل الدراسات العربية تستشهد, لتزكية أعمالها, بالنموذج الإجرائي الناجح في تحليل نظام الموضة لرولان بارت, ويستهويها عمله الفذ sz , ولكن بارت العربي, بل بارت الإجرائي لم يظهر بعد. فخذ أي دراسة تطبيقية في السيميائيات العربية وستلاحظ عموماً سطحية في التطبيق أو تعمية في العرض والتحليل.4 ولولا بعض المصطلحات المتواترة في الكتابة السيميائية كالسيميوز والعلامة

---

[1] – يوسف وغليسي,إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد, ص223.

[2] – سعيد بنكراد, السيميائيات: النشأة والموضوع, ص16.

[3] – فما ورد في مجلة عالم الفكر تحت عنوان: السيميائيات النشأة والتطور لسعيد بنكراد هو تلخيص لجزء من كتابه السيميائيات مفاهيمها وتطبيقاتها المنشور سنة 2003.

[4] – انظر على سبيل المثال: محمد مفتاح, في سيميائيات الشعر القديم دراسة نظرية وتطبيقية, وسعيد بنكراد, السيميائيات مفاهيمها وتطبيقاتها, , ومحمد صالح بن عمر, العربية وثورة المناهج, الجزء المتعلق بالتحليل السيميائي للنص الأدبي العربي.

والرمز والأيقون...بل لولا عناوين البحوث الأساسية والفرعية المبثوثة في ثنايا هذه الدراسات لتعذر على كثير من القراء التمييز بين أنواع من التحليل: السيميائي والتفكيكي والأسلوبي والتداولي والنصي والهرمينوطيقي... التي تختلف في المداخل والمرجعيات وتتشابه في الإجراء. هل يوجد تباين واضح على المستوى الإجرائي بين التفكيكية التي تنزع إلى تحرير العلامات من ارتباطاتها التقليدية أو العرفية بحيث تصبح قادرة على توليد الدلالة بلا حدود أو قيود, بل وإلى الأبد,1 وبين السيميوز عند بورس, والذي يعني في تصوره سلسلة من الإحالات المتتالية التي لا يمكن أن تنتهي عند نقطة بعينها؟2 إجرائيًا,كلاهما يفتح التأويل على مصراعيه ليصبح النص, باعتباره مجموعة من العلامات المتشابكة, مفتوحاً أمام القارئ الذي لا يقوم فقط بتحقيق دلالته أو تفسيره بل بإعادة كتابته عن طريق استحضار الغائب فيه وملء فراغاته وفجواته. فهو نص بلا حدود!! واحتواؤه طموح يتعذر على البشر! فلا يعلم مرجعيات تأويله إلا الله!! وكأن النص الأدبي خطاب مقدس من قبيل المتشابه, علمًا أن بعض النصوص المقدسة الموغلة في الرمزية نهائية الدلالة بدليل قوله تعالى: " ودخل معه السجن فتيان قال أحدهما إني أراني أعصر خمرًا وقال الآخر إني أراني أحمل فوق رأسي خبزًا تأكل الطير منه نبئنا بتأويله إنَّا نراك من المحسنين".3 فكان التأويل: " يا صاحبي السجن أما أحدكما فيسقي ربه خمرًا وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه قضي الأمر الذي فيه تستفتيان".4 ولك أن تتصور عدد الدلالات الممكنة في غياب هذا التأويل الرباني. فلا ندري مصير النص المفتوح الذي أدخله التفكيكيون والسيميائيون في اللانهائي, لا متى يُغلق؟ ولا كيف يُغلق؟ ولا العبقرية التي ستغلقه بعدما فتحته الاتجاهات التأويلية على مصراعيه.

---

[1] – محمد عناني, المصطلحات الأدبية الحديثة, دراسة ومعجم إنجليزي عربي, ص156.

[2] – سعيد بنكراد, السيميائيات: النشأة والتطور, ص38.

[3] – سورة يوسف, الآية رقم36.

[4] – سورة يوسف, الآية رقم 41.

4 – البعد الغائب:

أشرنا في العنصر السابق إلى نماذج من الكتابة السيميائية العربية وما تميزت به من غموض وتعمية, واضطراب مصطلحي, وغياب التراكم المعرفي (التكرار والاجترار), وكثرة التنظير, وبساطة التطبيق, وهذه الانتقادات كلها تعد من قبيل الأبعاد الغائبة. أضف إلى ذلك البعد التعليمي الذي لا تنتبه إليه معظم الدراسات. فالمتتبع لأدبيات البحث السيميائي عامة وللدراسات الواردة في مجلة عالم الفكر على الخصوص, يلاحظ الانفصام أو البون الشاسع بين جدل الوعي التنظيري والواقع الإجرائي بوضوح على المستوى التعليمي (الديداكتيكي), وهو الذي أطلقنا عليه البعد الغائب. فهو الذي يترجم حاجة المؤسسة التعليمية (المدرسة والجامعة خاصة) إلى تجديد مناهجها ومقرراتها بناء على المستجدات التي تطرأ على المعرفة العلمية. وإلا ما الفائدة من جدل الخطاب المعرفي الأكاديمي إذا لم يُتوج بفائدة عملية, وبتطبيقات تربوية مفيدة تلبي حاجة الأستاذ والطالب في القراءة المنهجية المنتجة؟! علمًا أن قيمة التطبيق تعادل قيمة الإسهام النظري في المعارف الحالية. وسوف يتضح باطّراد أن النظريات التي تتأبَّى على التطبيق نظريات مشكوك فيها.1

قد يستهين بعضهم بالبعد التعليمي فلا يكترث بمدى قابلية المعرفة للتكيف مع الوسط المدرسي, وقد لا يميز بعضهم بين أهداف البحث العلمي وأهداف الديداكتيك, وبين ما ينبغي أن يُدرَّس للطالب في مرحلة ما من مراحل تكوينه, وبين ما ينبغي أن يبقى بحوزة المتخصص, رغم أن البعد التعليمي هو المحك الذي يعكس مدى خصوبة التحولات المنهجية التي تشهدها دراسة اللغة والأدب شكلاً ومضمونًا. وإذا كان البحث العلمي يهدف إلى بناء نظرية في فهم ظواهر اللغة والأدب, فإن الديداكتيك تتغيَّا تحويل المادة العلمية النظرية العميقة المجردة إلى مادة تعليمية صالحة للاستهلاك, تؤهل الطالب عمليًا إلى خوض متعة المغامرة السيميائية والنصية والأسلوبية...

---

1 – هـــ. دوقلاس براون, أسس تعلُّم اللغة وتعليمها, ترجمة عبده الراجحي وعلي أحمد شعبان, دار النهضة العربية, بيروت1994, ص 174.

وما يلاحظ على تعليمية مواد اللغة العربية لاسيما النصوص الأدبية والبلاغة والنحو, أن درجة الاستفادة من جدلية التنظير والتطبيق هزيلة ولا تشفي غليل المشتغلين بالتدريس. ومن ينظر في المقررات النحوية والبلاغية والأدبية في كل مراحل التعليم (المرحلة الثانوية والجامعية خاصة) يكتشف أنها, مقارنة بمثيلاتها في الغرب, مقررات معتلة, تعيش فجوة بين ما هو كائن في التنظير وبين ما ينبغي أن يكون عليه التطبيق. فجزء كبير منها لم يعد يساير التطور الذي عرفته المعرفة العلمية في العقود الأخيرة.1 فأين مفاهيم النحو الوظيفي؟ بل أين مفاهيم اللسانيات النصية في المقررات النحوية التعليمية؟ وأين التحليل السيميائي أو التداولي للنصوص في المقررات الأدبية والنقدية؟ وأين التحليل الأسلوبي في المقررات البلاغية؟... من يعاين الفعل البيداغوجي داخل القسم يلاحظ أن التصور التقليدي في تدريس مواد اللغة العربية هو السائد عمومًا بمراحل التعليم العام في الوطن العربي. وقد لا نبالغ إذا قلنا: إن درجة الاستفادة من المناهج اللسانية والنقدية في تدريس فروع اللغة العربية صفر أو قريبة من الصفر. ففي الوقت الذي يشهد فيه النقد واللسانيات إنجازات ثورية غير مألوفة في مجال النظريات والمناهج, يعيش الأستاذ والطالب فقراً في أدوات القراءة المنهجية التي تساعد على تجديد الأفكار وتوليدها؛ ممارسات ميكانيكية, وميل إلى سرد النظريات, وطرق (قالبية) تُسكَّن فيها جميع النصوص مهما كانت طبيعتها, سردية أم وصفية أم حوارية أم إخبارية أم تفسيرية أم حجاجية.2 ويبقى الإشكال المطروح: من المؤهل لتطعيم مقررات اللغة والأدب بمناهج التحليل الحداثية؟ وكيف يحقق ذلك؟ بل كيف يُقْنِع من يرفض النظريات الأدبية واللغوية الحديثة أو يعاديها؟ وهل التكوين الذي تلقاه مدرس اللغة العربية يؤهله لهذا التجديد؟

---

[1] – محمد البرهمي, القراءة المنهجية للنصوص, تنظير وتطبيق, ط1, الدار العالمية للكتاب, الدار البيضاء2005, ص 8 – 21.

[2] – للاطلاع على الآليات المنهجية لتدريس هذه الأنواع من النصوص انظر, محمد حمود, دليل الإقراء المنهجي لأصناف النصوص, ط1, مكتبة السلام الجديدة, الدار البيضاء2005.

5 – الخاتمـــة:

إن القول بأن كل شيء على أحسن ما يرام يعني عمليًا استمرار الأوضاع على ما كانت عليه, ولكي لا تستمر الأوضاع على حالها لابد أن نقر بوجود أزمة مناهج رغم المكاسب التي حققتها, ولكن لا ينبغي تضخيمها. والمتأمل في وضع الكتابة السيميائية العربية يلاحظ أنها مظهر موضوي, لا تختلف عن الوضع العام للنظريات والمناهج المتهافتة التي تناوبت على درس الأدب. ونخبة البحوث التي استقريناها تشير بوضوح إلى أن الباحث العربي دخل حقل السيميائيات دخول المتسوق المستهلك, ولمَّا يخرج بعد من هذه المرحلة, فقد حاول استيعاب المنجز الغربي, وتعريف القارئ الشرقي بهذا الكائن الهلامي غير الموجود (بتعبير ميشال أريفيه) الذي لم تكتمل أطرافه, وتزويده بوصفات منهجية يصعب إيجاد تطبيقات ناضجة ومقنعة تثبت جدواها في تحليل النص الإبداعي, الذي تترصده الموضة لدى المنظرين, والروتين أو بساطة الإجراء لدى الممارسين. إن المغامرة السيميائية مغامرة مغرية وممتعة ولكن حصيلة الأعمال التطبيقية لا تعكس ما كان معقودًا عليها من آمال, فالكتابة السيميائية العربية لم تصحح وضعًا, ولم تجدد منهجًا بدليل أن موضوعات اللغة والأدب هي نفسها, فقط صياغة الأسئلة هي التي تغيرت. وإذا كان ذلك كذلك فنحن في حاجة ماسة إلى أن نتعلم كيف نسأل الأسئلة الصحيحة. ومن بين الأسئلة التي ينبغي أن تطرح هاهنا, ما مدى خصوبة مناهج اللسانيات في دراسة النص الأدبي؟ ألم تصبح مملة؟ ألم تأذن بالإفلاس؟... ليست هذه دعوة إلى تحرير فهمنا وتفسيرنا من التأطير النظري, الذي يظل مجهودًا مفيدًا وإن لم يبلغ الغاية التي يطلبها, ولكنها دعوة إلى مراجعة الأدوات المنهجية. وإن أحسن طريقة لجعلها خصبة منتجة هي تعديلها أو دحضها باستمرار.